ماما ! انا بهم من ؟

بقلم : الاستاذ عبدالرزاق العايش

كان محمد امين رجلا مستقيماً محباً للخير والصلاح ؛ فبحق ما لقبه عارفوه بـ « الانسان الكامل » وكان احب الاعمال عنده العطف على الاطفال بصورة عامة ، وبالأخص الذين حرمتهم الحياة القاسية حنان الأبوين .. فهو لا يتحدث عن مقوماتهم واسباب نموهم . هذا مع العلم انه لم يذق طعم البنوة بعد ، لأنه كان مضرباً عن الزواج على رغم وفرة اسبابه ـ عمر جاوز الثلاثين ، وثروة طائلة ، وصحة تامة . فوق هذا كله عاطفة جياشة .

اضرب عن الزواج لسبب لم اطلع على حقيقته ـ في بادئ الأمر ـ مع اني كاتم سره ؛ وكلما فتحت باب هذا الموضوع سده بعذر جديد لا يشبه ما قبله . فمرة يقول : « اني ارحب بهذه الفكرة ـ فكرة الزواج ـ لكني حتى الآن لم اعثر على شريكة لحياتي بالمعنى الصحيح ... » ومرة يقول : « اخشى ان تكدر الزوجة عيش والدتي واخواتي فتصبح حياتي جحيما لا تطاق ... » ومرة ... » ومرة ... » الى ان ضايقته ذات يوم بكثرة الحاحي فاراد ان يوقفني عند هذا الحد فقال : « لك ان تتدخل بجميع شؤوني إلا هذا .. ! لانه لا يمس بنفعه او ضرره احداً سواي .. ! »

اسقط في يدي ، اذ علمت ان لا طائل من وراء الحاحي وخشيت ان اتوغل الى أبعد من هذا فيجد الحقد الفرصة سانحة لبث بذوره في حقل مودتنا ، فاخسر ـ حينئذ ـ اعز شيء عندي ؛ اخسر صديقاً صادقاً وفياً ، عاشرته اكثر من عشرة سنين فلم أر منه سوى ما يستوجب التقدير والاعجاب .. إذاً . ! الأجدر ان لا اتعرض لهذا الباب ابداً . إلا ان غريزة حب الاستطلاع دفعتني ـ مرغماً ـ الى تتبع اخباره ، والوقوف على حركاته وسكناته عن كثب .

علمت ـ بعدئذ ـ انه منذ ثلاثة ايام يتردد على مستشفى « تذكار مود » لزيارة مريض له ، فالحيت على نفسي باللائمة حيث لم اذهب معه ، ولما كان من الغد صحبته على رغم تثبيطه لي بمجاملته المعهودة . ولما دخلنا بناية المستشفى اخذ يتصفح وجوه المرضات كمن يبحث عن احداهن ، وبينما نحن سائرين إذ برزت لنا فتاة جميلة كالزهرة تتمايل على عودها الغض الشامخ . فحيتنا بتحية رقيقة تدل على سابق معرفة . ثم صحبتنا الى غرفة المريض ـ وكان من بعض زملائه بالتجارة ـ ومكثت معنا حتى خرجنا من عنده وشيعتنا بمثل ما استقبلتنا ، وختمت تشييعها بنظرة عميقة نفذت الى اعماق نفس صاحبي ، نفوذ النور من الجسم الشفاف .

لست غبياً الى درجة لا أفهم لغة العيون . كلا .! بل قرأت ـ بلا تكلف ـ ما خطته تلك النظرة على صفحة شعوره وحالت ما محوته من سر غامض ومعنى دقيق ... هنا ادركت سر اعراضه عن الزواج ، وعزوفه عن ملكات الجمال من فتيات اسرته اللاتي يتعطرن بموطئ قدميه لما عرفن فيه من معاني الزوجة الفذة .

تكررت زيارة الانسان الكامل الى ذلك المريض ـ وغيره ـ فكأنه احس في زيارة المرضى بلذة لا تدانيها اية لذة ... وبعد اسبوع جاءني والامتعاض بادٍ على محياه ، فقال : « سلمى استقالت » فأبديت أسفي على حرمان مرضانا من مؤاساتها . ومن ثم انقطعت اخبارها عني ردحاً من الزمن .

* * *

كان احب انواع الرياضة عنده الرياضة النهرية وصيد الأسماك ، وكان يصحبني معه متى شاء وعن له ان يتريض او يصطاد . فكنا نخرج ـ غالباً ـ قبيل الفجر في قارب بديع صنع لهذه الغاية . وجرياً على هذه العادة جاءني فجر يوم واخبرني بانه يريد الصيد . فنفذت رغبته بكل سرور ، ولو انها كانت مفاجأة غير منتظرة ، حيث لم يسبقها وعد كسابقاتها . وفي اثناء الطريق ـ المؤدي الى القارب ـ اخذنا نتحدث عما سوف يكون صيدنا ، فكان صاحبي شديد التفاؤل بانه سوف يكون احسن صيد احببناه حتى الآن . وبينما نحن كذلك اذ عثرنا على لقيط ملقى على قارعة الطريق تداعبه نسائم الفجر كي لا يشعر بالوحشة . فهوى عليه صاحبي بدون تأنٍ وهو

يقول : « الحمد لله ... هذا صيدلي فلا ابغي صيداً غيره » ثم ارانيه واذا به طفل يجذب انفاسه بطمأنينة وهدوء كما لو أعطي منوماً . ثم خف مسرعاً الى حيث القارب ، فتبعته بخطى وئيدة وقلب يكاد يتشظى فيحطم حنايا ضلوعي من شدة الصدمة . وددت ـ في قرارة نفسي ـ ان ارجع الى منزلي لأهدئ اعصابي المحطمة . لكنه أمرني بان اتولى تسيير القارب ليتفرغ هو لمداراة الطفل حتى نوصله الى داره بالسرعة الممكنة .

اقل القارب ابشع جريمة ابصرتها عيناي ، فلا عجب اذا ماعجزت عن تسييره يداي ، ولحسن الحظ كان مجرى المياه موافقاً لمسرانا ؛ فتمكنت من التحليق في سماء احلامي وتخيلاتي حيث كانت اشعة البدر بين نشر وطي كأنها اكف كريمة تفيض احساناً فيمنعها مانع ، والسحب البيض تسبح في الفضاء كقلاع تتهادى في محيط هادئ ، وكان الثغر (شط العرب) باسماً بسمة الطفل الحالم في حجر امه ، وانفاس الربيع تحمل ـ من حجلة ما تحمل من اسرار الحياة ـ رائحة الطلع ممزوجة بشذى الازهار الندية .

هكذا انعكست على مرآة شعوري صورة الجمال الذهني مكونة احسن تكوين .. لكن .. اني لي التزود منها مادامت الانسانية المعذبة نصب عيني تئن من جراحها ..؟ اداً .! يحق لي ان ارى تلك الصورة الجميلة كأبشع شيء عرفته ، وارى كل شيء حولي مأتماً للحزن والأسى ، حتى السحب البيض تراءت لي اكفاناً بعثها القدر القاهر ليدرج فيها حنان الابوين .

طفقت ابحث عن جرم هذا المخلوق الضعيف ، وكأن دافعاً خفياً يأبى ان اجعل بحثي خفية او سؤالي همساً في اذن القدر ... فرحت اناجي الطفل بصوت مسموع عسى ان تحمل الريح بعض نجواي الى مسمع الجاني فيخزه ضميره ـ على الاقل ـ لما يسمعني قائلا : « أيهذا المولود الجديد ما ذنبك .. ؟ هيك اذنبت ... فكيف هان على ابويك ان يلفظاك لفظ النواة ..؟ ألم يعلما بانك جني عاطفتها التي ضحيا في سبيلها بأعز شيء ـ كان ـ عندهما يسمى العفة .. ؟

قلت هذا واصغيت قليلا لرد الجواب ، ولكن « السائل هو المجيب » اجاب بلسان الحال قائلا : « بلى . ! لقد علما كل شيء ... وعلما اني كل شيء في الوجود .. لكن .! لكن الانانية لعبت دورها فتغلبت على كل شيء ..! حتى على قول القائل « الولد قطعة من الكبد » ألا سحقاً لها من كبد ابخس من نطفة قذرة .. ! » كل هذا وصاحبي غارقا في بحرين من دموعه وافكاره ، حتى وصلنا الى داره فتركته وشأنه .

* * *

شاء القدر ان يجعل الطفل عبرة لمن اعتبر ؛ فبعد أن سقاه كأس الهوان حتى الثالة ، ولما ينهي الساعة الأولى من عمره .... راح يغمره بفيض من نعمه واحسانه . فلم يدعه في حجر من تشمئز من رؤيته اكثر من سبعة ايام .. بل هيأ له انسانة رقيقة العاطفة ، مرهفة الشعور ، دقيقة الحس ، ذات قلب يفيض عطفاً وحناناً .

تألق نجم سلمى في سماء التربية من جديد . ولكنه خص بنوره « بريئاً » دون سواه . وذلك بعد ان أعدلها الانسان الكامل داراً أنيقة ، وأثثها باحسن ما يملك من اثاث . ثم استدعا ابويها العاجزين الذين بقيا في بغداد بلامعيل سواها ، وراح يغدق على الجميع من واسع نعمته ... كل هذا في سبيل تربية لقيطه الغالي . فقامت (سلمى) بتربيته خير قيام ، وكان يؤلمها جداً ان تسمعه باكياً ولو بكاء دلال . وكانت تشقى في سبيل سعادته ، وتمرض في سبيل صحته ، حتى بلغ العاشرة من سنيه ، فجاءها ذات يوم باكياً وسألها بسذاجة « ماما ! ماما .! أنا بن من .؟ » فانفجر بركان دموعها ، وضمته الى صدرها واخذت تلفح جبينه بزفراتها المتصاعدة دون ان تنبس ببنت شفة .. ومن ثم ذبل عودها النضر ، وعلت وجهها المشرق صفرة مقيتة ، ولم تلبث طويلا حتى وافاها الاجل المحتوم دون بلوغها الخامسة والثلاثين . وبعد مرور سنتين اعترى الانسان الكامل مرض عضال اعيى الأطباء علاجه ، ولما حضرته الوفاة كنت حاضراً مع من حضر لسماع وصيته ، ولكنه لم يشأ ان يوصي بشيء سوى انه مديده المرتعشة وناولني مفتاحا وقال : [بصوت يغالب حشرجة الموت] وهو يشير الى خزانة حديدية « وصيتي ... هنا ... نفذوها ... بعد دفني ... مباشرة .. ! » ثم وزع على من حضر ما استطاع توزيعه من نظرة الوداع النهائي ، وافرغ الباقي في عيني بريء .

توقعت في الوصية كل شيء يمت الى الخير والصلاح بصلة ، فكان ماتوقعت ... إلا شيئاً واحداً لم اتوقعه . فاخذت اطيل النظر فيها واسائل نفسي أفي يقظة أنا .. أم في منام ..؟ ولفرط